

النخلة في كلام العرب

د. محمد نور العلي

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد:

فإن النخلة هي شجرة التمر، وهي من الأشجار التي حظيت بالقدح المُلغى والاحظ الأوفر من الاهتمام والمكانة العالية والمنزلة الكريمة، وحازت قصب السبق سواء في تاريخها العريق أو حاضرها العبق، وهي شجرة مباركة ذكرها القرآن في معرض المدح في عدد من آياته، وجعلها النبي صلى الله عليه وسلم شبيهة للمؤمن في كثرة نفعها واستمرار خيرها ودوام ظلها وطيب ثمرها فقال «إِنَّ مِنْ الشَّجَرِ شَجْرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنَّهَا مِثْلُ الْمُسْلِمِ، فَحَدَّثُونِي مَا هِيَ» فَوَقَّعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبُوَادِيِّ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو: «وَوَقَّعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، فَاسْتَحْبَبْتُ، ثُمَّ قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «هِيَ النَّخْلَةُ» (١)

وفي قوله تعالى "﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ (الرحمن: ١١) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: «أَفْرَدَهُ عَنِ الْفَاكِهَةِ بِالذِّكْرِ لَشَرَفِهِ وَنَفْعِهِ، رَطْبًا وَيَابَسًا» (٢) وإن حديثنا سيكشف اللثام عن مدلولات ومفردات هذه الشجرة الكريمة في فقه اللغة عند العرب فهم خير من نثروا درها وعبروا إلى ضفاف جمالها وكشفوا عن لثام سخائها.

النخلة وتعظيم العرب لها :

لم تعظم العرب شجرة كتعظيمهم النخلة، ولذلك تعدت أسماؤها وكثرت أمثالها عندهم ومن ثم سموها بالمرجبة والترجيب التعظيم، والمرجبة هو: أن تعمد وتسند النخلة الكريمة ببناء من حجارة أو خشب إذا خيف عليها لطولها وكثرة حملها أن تقع. (٣) ومن هذا المعنى سمي شهر رجب لتعظيم العرب إياه.

النخلة ووصفها عند العرب :

لعله لا يوجد وصف شامل عند العرب كشيء ما وصفت به النخلة في خيرها وبركتها وجمالها فقد روى الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء قال: لقيت أعرابيا بمكة فقلت: مِمَّنْ أَنْتَ قَالَ: أسدي. قلت: ومِنَ أَيِّهِمْ قَالَ نمري. قلت من أي البلاد قال: من عمان. قلت: صِفْ لِي أَرْضَكَ قَالَ: سَيْفٌ أَفِيحٌ وَفِضَاءٌ صَحْضُحٌ وَجِبَلٌ صَرْدُحٌ وَرَمْلٌ أَصْبَحٌ قَلْتُ: فما مالك قال: النخل.

قلت: فأين أنت عن الإبل قال: إن النخل حملها غذاء وسعفها ضياء وجذعها بناء وكربها صلاء وليفها رشاء وخوصها وعاء وقروها إناء. (٤)

وكانت العرب تمدح العظيمة الجيدة الخلق في طول وفي نعمة وعلى اعتدال من النساء وتصف نموها بنمو النخلة وعظمتها، قال الأصمعي: ونعتت امرأة من العرب ابنتها، فقالت:

رَبِحَلَّةٌ سَبِحَلَّةٌ

تَنَمَّى نَمَاءُ النَّخْلَةِ

وَالرَّبِحَلَةُ: الْعَظِيمَةُ الْجَيِّدَةُ الْخَلْقِ فِي

طُولِ، وَالسَّبِحَلَةُ الضَّخْمَةُ (٥)

والعرب تخصص الشيء ببعض من كله وتضرب له الأمثلة فتقول: سَوَادُ الْعَيْنِ. وَسَوِيْدَاءُ الْقَلْبِ وَمِخُّ الْعَظْمِ. وَزَيْدَةُ الْمَخِيضِ وَسُلَافُ الْعَصِيرِ. وَقَلْبُ النَّخْلَةِ. (٦) وهي جمع قلب وقلب وقلب، وهي جمارها ولبها.

والعرب تضيف النخلة إلى مريم فيقولون في أمثالهم " أعظم بركة من

نَخْلَةَ مَرْيَمَ قَالَ النُّعْلِيُّ: وَكَانَتْ نَخْلَةَ مَرْيَمَ الْعَجْوَةَ وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي قِصَّتِهَا «وَهَزِي إِلَيْكَ بِجَذَعِ النَّخْلَةِ تَسَاقُطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا» (مريم: ٢٥) (٧) وعن الشعبي

قال: كتب قيصر إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن رسلني أخبروني أنّ بأرضك شجرة كالرجل القائم تفلق عن مثل آذان الحمر، ثم يصير مثل اللؤلؤ، ثم يعود كالزمرد الأخضر، ثم يصير كالياقوت الأحمر والأصفر ثم يربط فيكون كأطيب فالودج ثم يجف فيكون عصمة للمقيم، وزادا للمسافر فإن كان رسلني صدقوني فهي الشجرة التي نبتت على مريم بنت عمران. فكتب إليه عمر-

رضي الله عنه-: إن رسلك صدقوك، وهي الشجرة التي نبتت على مريم. (٨)

وقيل هي في بيت لحم ويقال إنها غرست منذ أكثر من ألفي سنة وهي منحنية، ومن بارع التمثيل بها قول الشاعر:

ألم تر أن الله أوحى لمريم

مَنْ مَرَّبَ فَسَأَلَهُ عَنْ نَخْلِهِ فَقَالَ: صَنَبَرٌ
أَسْفَلُهُ وَعَشَشٌ أَعْلَاهُ، يَبْنِي دَقًّا أَسْفَلَهُ
وَقَلَّ سَعْفَهُ وَيَبْسُ؛ فَإِذَا مَالَتْ فَبِنِي تَحْتَهَا
دُكَّانٌ تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ فِيهِ رُجْبِيَّةٌ. فَإِذَا كَانَتْ
مُنْفَرِشَةً عَنْ أَخْوَاتِهَا فِيهِ عَوَانَةٌ. (١٤)

النخلة في ترتيب حملها :

لم تغفل العرب النخلة في ترتيب حملها
وكانوا يسمون طلوعها بالكافور، والضحك .
يقول الخليل : يقال: ضحكت النخلة إذا
انشق كافورها. وقد سمي ضحكا تشبيها له
بالتغر في بياضه عند الضحك يقال ضحك
النخل فلحقوه ويقال له أول ماتلق أطرافه
تبسم الطلع وانبزل - أي انفتق. فإذا
انعدمت سمته العرب السباب، بالتخفيف،
واحدة سيابة، فإذا اخضر واستدار قبل أن
يشد فهو الجدال. فإذا عظم فهو البسر.
ويقال قد أسر النخل، فإذا اشتد النوى
ونضجت البسرة وهي خضراء فهو السدى
والمسترخي، فإذا صارت فيه طرائق
وخطوط فهو المخطم، فإذا تغيرت البسرة
فيل هذه شقحة وقد أشقح النخل، وقيل
إذا اصفر أو احمر فقد أشقح وهو قبل
أن يحلو، فإذا طاب سمي الزهو، والزهو
واحدته زهوه وقد أزهى النخل وزها زهوا،
وقيل إذا احمرت البسرة وهي حمراء
الجنس قيل لها زهوه، فإذا ظهرت الحمرة
أو الصفرة قيل تجهر الزهو، ويقال أفضح
النخل - إذا احمر واصفر وكذلك أوضح
ووضح وأشرق وشرق وتلون، (١٥)

ولقد أحمل الثعالبي في ترتيب حمل
النخلة فقال : أطلمت. ثم أبلحت. ثم
أبسرت. ثم أزهت. ثم أمعت. ثم أرطبت.
ثم أثمرت. (١٦)

ومما يستطرف ذكره في هذا الجانب

يقال بسقت النخلة بسوقا، ونخلة باسقة
ولفان البواسق. ومن المجاز: بسق على
أصحابه: طالهم وفضلهم. قال تعالى " ﴿
وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴾ (ق: ١٠)
فإذا طالت مع انجراد فهي سحوق وهي
النخلة الطويلة الجرداء (١٢)

النخلة في سائر نوعاتها :

للنخلة نوعات دقيقة في كلام العرب
حيث إذا كانت النخلة على الماء فهي كارعَةٌ
ومكرعةٌ. وهي التي لا يفارق الماء أصولها؛
قال لبيد بن ربيعة يصف نخلا نابتا على
الماء:

يُسْرِبْنَ رِفْهَا عِرَاكًا غَيْرَ صَادِرَةٍ

فكلها كارعٌ في الماء مُغْتَمِرٌ
والمكرعات أيضا النخل القريبة من
المحل.

فإذا حملت في صغرها فهي مهتجئة.
فإذا كانت تدرك في أول النخل فهي
البكور والبكور والبيكائر، والمعجال. وأما
المخار - فهي النخلة التي يبني حملها
إلى آخر الصرام. فإذا كانت تحمل سنة
وسنة لا، فهي سنهاء. ومما يقوي ذلك ما
روى أبو عبيد عن الأصمعي أنه قال: إذا
حملت النخلة سنة ولم تحمل سنة قيل: قد
عاومت، وسانئت. وأنشد الفراء:

فلبست بسنهاء ولا رجبية

ولكن عرايا في السنين الجوائح
فإذا كان بسرها يبتثر وهو أخضر
فهي خضيرة. فإذا دقت من أسفلها
وانجرد كبرها فهي صنبور. وأصل
الصنبور: سعمة تثبت في جذع النخلة لا
في الأرض. قال أبو عبيدة: الصنبور النخلة
تبقى منفردة ويدق أسفلها ويتشتر. يقال:
صنبر أسفل النخلة؛ وقد لقي رجل رجلا

وهزي إليك الجذع يساقط الرطب
ولو شاء أن تجنيه من غير هزه

جنته ولكن كل شيء له سبب (٩)

وفي معرض شرحه للآية قال ابن
كثير: والظاهر أنها كانت شجرة، ولكن لم
تكن في إبان ثمرها، قاله وهب بن منبه:
ولهذا امتن عليها بذلك، أن جعل عندها
طعاما وشرابا، فقال: ﴿تَسَاقَطَ عَلَيْكَ
رُطْبًا حَنِيبًا فَكَلِي وَأَشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ أي:
طيب نفسي؛ ولهذا قال عمرو بن ميمون: ما
من شيء خير للنفساء من التمر والرطب،
ثم تلا هذه الآية الكريمة. (١٠)

النخلة ومسمياتها عند العرب :

للنخلة مسميات تتعلق بقصرها
وبطولها وسائر نوعاتها، حيث إن لها أسماء
نطقت بها العرب من حين تبدو صغيرة
إلى أن تكبر، وكذلك الرطب من حين
يكون طلعاً إلى أن يصير رطباً؛ فإذا كانت
النخلة قصيرة فتسميها العرب "فسيلة"
وهي: الصغيرة من النخل، والجمع فسائل
وفسيل، والفسلان جمع الجمع؛ وأفضل
الفسيلة: انتزعها من أمها واغترسها،
(١١) وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه
مرفوعاً " إِنْ قَامَتْ عَلَى أَحَدِكُمُ الْقِيَامَةُ،
وَفِي يَدِهِ فَسِيلَةٌ فَلْيَغْرِسْهَا " (١٢)

وهذه الفسيلة إذا صار لها جذع
يتناول منه المتناول فتلك العصيد، فإذا
قانت اليد فهي جيارة، وهي من العظمة
والعلو والاستقامة، فإذا ارتفعت عن ذلك
فهي الرقلة، والرقل: النخل الطوال، ويقال
أرقلت الشجرة إذا عظمت وطالت.

وهي عند أهل نجد العيدانة من
قولهم عيدنت النخلة - صارت عيدانة -
أي طويلة لمساء، فإذا زادت فهي باسقة،

اعتدالها وفي سجودها حيث قالت العرب " سجدة النخلة " إذا مالت بحملها، (١٩) وقال السري الرفاء:
وكأن ظل النخل حول قبابها
ظل الغمام إذا الهجير توقدا
من كل خضراء الذوائب زينت
بثمارها جيدا لها ومقلدا
خرقت أسافلهن أعماق الثرى
حتى اتخذن البحر فيه موردا (٢٠)

وقد أشار الحريري البصري إلى أن أكثر الرواة يروونه ببيترب، ويعنون به المدينة، وأنكر ابن الكلبي ذلك، وحقق أن الرواية ببيترب بالتاء المعجمة باثنتين من فوق، وهو موضع يقرب من اليمامة ويتأخم منازل العمالق. وأحتج في ذلك بأن عرقوبا كان من العمالق الذين لم ينزلوا المدينة (١٨)

وفي ختام المطاف لا يسعنا إلا أن نقف إجلالا أمام شموخ هذه الشجرة المباركة، التي تظل صامدة معطاءة كريمة في

مواعيد عرقوب لأخيه وهو رجل من العماليق أتاه أخوه بسأته فقال: إذا أطلعت هذه النخلة فلك طلعتها، فأثاه للعدة، فقال: دعها حتى تصير بلحا. فلما أبلحت قال: دعها حتى تصير رطبا. فلما أرطبت قال: دعها حتى تصير تمرا. فلما أثمرت عمد إليها عرقوب فجدّها ولم يعط أخاه شيئا، فصارت مثلا سائرا في الخلف. قال الأعشى:

وعدت وكان الخلف منك سجيّة
مواعيد عرقوب أخاه ببيترب (١٧)

المراجع :

- (١) متفق عليه، البخاري رقم ٦١، ومسلم رقم ٢٨١١.
- (٢) تفسير ابن كثير ٤٩٠/٧.
- (٣) النهاية لابن الأثير، مادة " رجب "
- (٤) المزهري في علوم اللغة للسيوطي، ١٢٠/١، والسيوطي: شاطئ البحر. وأفيح: واسع والفضاء الواسع من الأرض. والضخخ: الصحراء. والصردح: الصلب. والأصيح: الذي يعلو بياضه حمرة. والرشاء: الحبل. والقرو: وعاء من جذع النخل ينبذ فيه. والكرب بالتحريك هو أصل السعف، وقيل: ما يبقى من أصوله في النخلة بعد القطع كالقراقي.
- (٥) أمالي القاضي، ٢١٨/٢.
- (٦) فقه اللغة للثعالبي، ٥٥/١.
- (٧) ثمار القلوب للثعالبي ص ٢٠٦-٢٠٧.
- (٨) نهاية الأرب للنويري ١٢٠/١١.
- (٩) ثمار القلوب للثعالبي، ص ٢٠٦-٢٠٧.
- (١٠) تفسير ابن كثير، ٢٢٥/٥.
- (١١) لسان العرب، مادة " فسل "
- (١٢) مسند أحمد برقم ١٢٩٠٢. وإسناده صحيح.
- (١٣) المخصص لابن سيده، ٢/ ٢١٤. أساس البلاغة للزمخشري، ٦١/١.
- (١٤) لسان العرب مادة " كرع " و " صنبر " / فقه اللغة ٢٠٦/١. تهذيب اللغة لأبي منصور ٧٩/٦.
- (١٥) نهاية الأرب ١١٩/١١. العين للفراهيدي، مادة " ضحك " المخصص ٢٢٠/٣.
- (١٦) فقه اللغة، ص ٢٠٦.
- (١٧) العقد الفريد ٢٦/٣.
- (١٨) درة الغواص للحريري ص ٧٩.
- (١٩) الزاهر لأبي بكر الأنباري ٤٧/١.
- (٢٠) نهاية الأرب للنويري، ١١ / ١٢٣.